رئيف خوري في مسيرته الفكرية

بقلم الدكتور شكري فيصل

لم يكن واحدا من آحاد الناس قدر ما كان انسانا متميزا من صفوة الناس .. انسانيته هي التي تصوغه ، وانسانيته هي التي توجهه ، وانسانيته هي التي تكشف له آفاق الرؤية البعيدة ، فاذا من ذلك على مثل ما يكون الملهمون .

ولا شيء عند رئيف أغلى وأسمى من هذه الانسانية .. انك تلقاه مرات ، وتستمع اليه مرات ، وتقرأ كتبه عديدا من المرات ، فينتهي اليك ـ فيما لا يقبل الشك ـ أنه مزاج متآلف متناغم من العقل الكبير والقلب الكبير .. ونتاج رائع لتزاوج نادر بين قوتين اثنتين : قوة الفكر وقوة الضمير .. وسلوكية بارزة منطلقها أنها تؤمن بأن الانسان ليس هذا العقل الذي يخطىء ويصيب ، وليس هذا القلب الذي يقوى ويضعف ، ولكنه هذا العقل الذي تتخلله ارواح القلب ، وهذا القلب الذي تستقي شرايينه واوردته من العقل .

حين اخذت أقرأ نتاج رئيف وأتتبع سيرته ، أرصد سيرته في الحياة ومخلفاته في الكتب راعني منه هذا الجانب المتميز : ذلك هو مسيرته في طريق الفكر .. راعتني منه هذه السيرة الفكرية الفذة التي استطاعت ان تتقبل وتتأبى ، ان تلتزم وتثور ، ان تلبس القيد وتكسره .. هذه السيرة التي عرفت المجتمع والحياة لا على انها معادلات مفروضة ولكن على انها تيار متدفق ، وفهمتها لا على انها جليد متجمد بل على انها سيولة متدفقة دائمة .. لها في كل بيئة بريق ، وفي كل وسط طعم ، وعلى كل شفاه مذاق .

ولقد كنت تلقى رئيفا وانت تعرف ان بينكما تباعدا في الرأي او تخالفا في الفكر ، او تباينا في المذهب .. ولكنه كان يلقاك في رحاب من السيرة الفكرية العريضة ، وفي آفاق من القلب الكبير ، وفي دنيا عبقة من الانسانية المتفتحة .. ولذلك استطاع رئيف ان تكون له هذه المودات والصداقات في هذه الاتجاهات او تلك .. لان الناس ، في طبائعهم الطيبة ، لا يخشون الفكرة ولا تردعهم المذاهب ، وانما ينفرون أن تكون مع الفكرة العصا، ترافقها او تقارنها ، وان يكون مع المذهب الاكراه .. والويل للانسانية حين تقودها العصا او يكون زمامها الى الاكراه.

ومن هنا كانت السيرة الفكرية لرئيف من أحلى ما خلف .. ان هذه السيرة كانت تستر وراءها هذا الفكر ـ الانسان .. وتجسد النموذج الفرد الذي لا يرى ان الفكر صناعة مجردة ، لها اربابها الذين يقولون فلا يخطئون ، ويفكرون فلا يغلطون ، ويقررون فلا يعارضون .. وانما هو هذه الصناعة الاجتماعية ـ ان استوى التعبير ـ التي يجب أن تتاح للناس جميعا على اوسع نطاق ، وان يتاح في ادواتها ووسائلها على اكبر مساحة ، وان تتأبى على كل صيغة مفتعلة او معادلة صماء او نتائج مطلقة لا تقبل التفتح والتجدد والنماء .

أجل .. كذلك منهم رئيف ، في سيرته الحياتية ، الفكر وكذلك اصطنعه .. وكذلك يحسن ان نفهمه ونصطنعه ، فباسم الفكر لا نستطيع ان نقتل الفكر ، وباسم الفكر لا نستطيع ان نضرب عليه بالاسداء .

ان هذه الاداة المقدسة التي وهبها الله للانسان ، والتي تربط الناس بعضهم ببعض ، والتي تكون هذا الخط الصاعد النامي في كل مراحل التطور الانساني منذ كان اول مخلوق على وجه الارض حتى يرث الله الارض ومن عليها ـ هذه الاداة المقدسة لا يمكن ان تكون سيفا ولا عصا ، ولا يحسن ان تنقاد لارباب العصي والسيوف .. وانما قيمتها ان تكون دائما الارض المشتركة بين الناس جميعا .. الارض الحرام التي نلتجيء اليها ، ونحتمي بها ، ونلتقي عليها ، وننطلق منها ، وننتهي اليها .. ان تكون هي البداية وهي الاداة وهي النهاية .

وحين نملك ان نخرج بالفكر عن ان نصطنعه سلطة، او ان نعيه صناعة مجردة يتولاها أرباب من دون الناس ويمارسون باسمها السلطة على الناس في نوع من التهويل او التخويف او اصطناع الحتمية حين نجعل الفكر هذه الصناعة الاجتماعية التي تؤمن بالانسان والمجتمع ، وتطورهما ، وتتطور بهما ، فاننا نستطيع أن نتلاقى من غير ان يكون هنالك حيف او افتئات ، ونستطيع ان نطمئن الى الافق العريض الذي يمتد امام أبصارنا من هنا وهناك ليس حدا ولا نهاية ولا عائقا ، وانما هو نوع من الاغراء الذي يقود البشرية الى مدارجها اللانهائية في حب وصفاء ووود .

ان نقطة الضعف في مسيرة الشعوب النامية انها فقهت الفكر او حكمت على ان تفقه الفكر على انه مذهب او نظرية او اتجاه ، فليس لها الا ان تتقوقع فيه : تنظر من خلاله ، وتنطوي في حدوده وتعيش له وبه لانه يسع العالم الذي كان والعالم الذي هو كائن والعالم الذي سيكون فليس لها ان تحيد عنه او تمد اعناقها فوقه او حتى ان تحاول فهمه على نحو آخر مما يفرضه الواقع او البيئة او التطور .. في حين كان يجب ان تفقد هذه الشعوب المذهب او النظر على انه افراز للفكر في واقع معين وفي ظرف معين .. وان الذي يربطنا او يجب ان

يربطنا انما هو الفكر نفسه ، وان الذي يقودنا ليس واحدة من صيغ هذا الفكر ، وانما هو الفكر نفسه ناميا متطورا متساميا .

ان روعة رئيف في سيرته الفكرية والمثل الذي ضربه في حياته القصيرة انه استطاع ان ينأى عن هذا التقوقع .. ان يلتزم الفكر في تطلعاته الدائبة لا في صورته الواحدة .. في دروبه المتجددة لا في مواقفه المتجمدة .. في حركته لا في انقطاعه عن الحركة .. في ايمانه بان صورته المثلى ليست هي الصورة التي انتهى اليها وانما هي الصورة التي يحاول ان يصل اليها .

وهل يضير الانسانية كلها شيء مثل ان تستطيب بعض الذي تصل اليه فتتوقف عنده وتراوح اقدامها فيه ؟.. هل يضيرها شيء مثل ان يأخذها الغرور والكبر فتظن ان المدى الفكري الذي وصلت اليه غاية الغايات ، ليس قبلها وليس بعدها .. اليس التمرد اذن على هذا الفكر الذي يستريح الى نتائجه ويطمئن الى نظرياته ويريد ان يصوغ الدنيا كلها في أبعاد الزمان والمكان ، اليس هذا التمرد نوعا من الانسانية العميقة التي تريد ان تحترم هذه الاداة المقدسة وتؤمن بها أشد الايمان ؟.. اليس في هذا تفسير لما قدمت من ان سيرة رئيف نمط من هذا التوافق بين الانسان وبين المفكر .. بين الفكر الذي يحترم الانسانية وبين الانسان الذي يؤمن بالفكر ؟..

من اجل هذا كان واحدا من ابرز الخطوط في المسيرة الفكرية لرئيف انه زاوج بين الالتزام والتمرد ، بين العقيدة والثورة .. انه لم يطق الصيغة الواحدة التي لا صيغة وراءها ، ولذلك احتفظ بالحد الرابع يصوغه على النحو الذي يهدي اليه الفكر لا المذهب ، ويسوق اليه الواقع لا النظرية ، ويفرضه عليه مجتمعه العربي وظروف هذا المجتمع قبل ان تفرضه النظريات .. لقد كان يحرك بيديه هذا الحائط الرابع حيث يشاء ، بل انه حاول ان يزحزح بعض الاعمدة الاخرى ليصوغ البناء العربي عربي الروح والوجه واللسان .. وظن الذين رأوه يفعل ذلك انه يعاني فترة هرطقة على حين كان يعاني ازمة ضمير .. ازمة الضمير العربي كله ، ويجسد مأساة الفكر العربي كله ، ويمثل انسان هذا الوطن الذي يحاول ان يهتدي الى الطريق في غير اكراه ولا الزام ولا عصا .. ان يهتدي اليه بعينه وقلبه وفكره .

أكان رئيف اذن ضحية غالية من مواكب الشهداء على الطريق العربية ؟.. ما الذي يمنع ان اقول ذلك ، ايها السادة ؟.. ألم تكن المسيرة الفكرية لرئيف مسيرة الشهداء الذين لا يطيقون ان يروا ان الفكرة تنقلب الى عصا ، وان المذهب ينتهي الى الاقبية المظلمة او يقود اليها ، وان من حق الذين ينشدون الهواء الطلق ويستشرفون الافق الرحب ان يظلوا يفعلون ؟!

من هنا استبان لي المعنى الارفع في حياة رئيف .. كتبه .. ما احلاها ـ حياته التعليمية .. ما أروعها ـ قدرته على ان يستخدم التراث العربي في سبيل آرائه الادبية والنقدية وان يفيد منه في طرائقه التعليمية قدرة بارعة وجانب من رئيف لعله ان يكون متميزا به عن كثير ممن زاملوه في التعليم .. اثاراته المتصلة وقدرته على ان يحرك الجو الراكد حوله في لبنان شيء واضح .. كل ذلك من الجوانب المتميزة عند رئيف .. ولكن أظهر ذلك واعمقه وادله على الفكر ـ الانسان انما هو هذا المعنى الاكمل في حياة رئيف اذ وعى ذاته ووعى مجتمعه .. لم يؤخذ بالمجردات والمطلقات ، ولم يستعبده الفكر المرسوم .. وانما انطلق كشهاب مضيء في مساره الذي صاغه هو ولم يرتض ان يصاغ له .

ان ادراك الذات وادراك المجتمع ، أو ادراكهما معا كما أحب ان اقول هو الشيء الذي تحاول الحياة العربية ان تتلمسه : تصل اليه حينا وتضل عنه احيانا .. ان مجتمعنا ليس مجتمعا من غير افراد ، وافرادنا ليسوا ارقاما على الورق او دخانا في الهواء .. اننا هذا التكامل المتكامل بين ذواتنا الفردية وذواتنا الاجتماعية .. والمحاولات المختلقة في اهمال جانب او طغيان طرف على طرف ليس الا استمرارا لطريق التيه الذي لا ندري كيف يفرض علينا .

ولن ندرك هذه الحقيقة ، لن نعيها ، اذا نحن ظللنا في نطاق الفكر المجرد .. ان الفكر المجرد فكر يستطيع ان ينقلنا من النقيض الى النقيض .. والواقع وحده : المجتمع والتاريخ وروح الامة والمستقبل ، هي التي تستطيع ان تهب الفكر طريقه الى الحقيقة .

اليست الحياة العربية اليوم مثلا واضحا لهذا التيه الذي يمتد من النقيض الى النقيض دون ان يقع على الحقيقة بينهما .. اليس هذا الفيض من الفكر النظري المجرد هو الذي يثير كل هذه الخصومات ويحجب معالم الطريق .. اليس ذلك الفكر الذي يصطنع التجريد والاطلاق اصطناعا هو الذي يحيل الحياة العربية عارفة بكل شيء بعيد عنها ولكنها تجهل الطريق الى ذاتها العميقة ؟

من هنا ينكشف ان « رئيف » لم يكن مفكرا فحسب ولا اديبا فحسب ، وانما كان قبل ذلك ناقدا .. قدرته على النقد هي التي هدته الى مواقفه وهي التي قادته اليها .. ان النقد او الفكر النقدي واحد من السمات الكبرى التي لازمت شخصية رئيف وميزتها .. ولولا هذا الحس النقدي لما استطاع أن يبني سيرته الفكرية على هذا النحو المتفرد .. (*)

شكري فيصل

(*) القيت هذه الكلمة في مهرجان الرابطة الادبية الشمالية الذي اقيم هذا الشهر في طرابلس بمناسبة الذكرى الاولى لوفاة المرحوم رئيف خوري .